

الشيال الهندي

أقصو صتبولىسية

بقتل م. ل. هو يكنس

للأستاذ محمد لطفي جمعة

وأظلتني سماؤها المظلمة، أحسست
بالوحشة، ودب في نفسي الحنين
إلى الوطن، فرأيت نفسي أدفع
وأدفع وأزاحم وأصادم، بين
وجوه غريبة وأرواح ظالمى للمادة
دائمة الحركة، لا تقف ولا تنى
ولا تتأمل؛ ونظرت في الشوارع
السوداء ودخان المصانع يفشى
أوجه المباني، فذكرت ما كنت
أنعم به في وطني، ولا سيما في
قرية شنجري من بساط الثرى
الأخضر، وسرادق السماء
الأزرق، بتلألأ في قبتة سراجيه
الوهاج ويتألق، وعجبت لقوم
يعيشون بدون الشمس في ظلام
حالك! لك الله يا أرض الوطن
بأندي ما ترام (١) أيتها الأم
الرؤوم المعطوف الودود الألوف
المتحدبة على كل بنيك وأولادك،
يا من تشملين الغرب وابن السبيل
والبار والفاجر بأنوارك الزهراء
والوانك ذات البهاء والبهجة.
طوبى لمن يحلوه المقام، ويصفو
له قضاء الأيام، في سهولك
ووديانك، وعلى ضفاف أنهارك
أو في سفوح جبالك. لقد

حدث برماشور لال عن

نفسه قال:

عند ما بعث بي والدي
جاپوتانا لال إلى القارة الأوربية
لأنني علوم الطب والجراحة، قال
لي وهو يودعني: «كن خيراً،
فإن لم تستطع فكن حذراً:»
وقالت لي أمي: «خذ هذا
الشيال لتلفع به ليقبك برد
تلك البلاد القاسي» وكان من
صنع كشمير، رقيق النسيج،
بهيج الألوان «وإذا فقدت
شيئاً فافراً تعويذة كالي، ولقنتني
تلك التيممة بالسنسكريدية، لأن
أمي المحبوبة لم تكن تعرف
الكتابة

وركبت البحر من ممباي
في باخرة عتيقة، فلما بلغت
مدينة لندن، وجست خلال
طرقها، واحتواني جوها القاتم

تعريف بالقصة

مارتين لويس هويكنس أو هويكنز
مؤلف شاب، ولد في الهند وعاش فيها
قسماً كبيراً من حياته، وأتقن وضع القصة
القصيرة وكان أبوه طبيباً في مقاطعة لاهور
ولكنه تخرج في الآداب والفنون — ولد
سنة ١٨٨٦ ونشر أدبه في مجلة سنوري
مجازين ووايد ورلد مجازين وكتب القصة
الامتاحية في مجلة ستراند لأحد أعداء عيد
الميلاد الشهيرة غازت إعجاب النقاد والقراء
بما حوته من صدق الوصف ودقة التحليل وهي
التي تنقلنا إلى قراء العربية بعد إعجابنا بها
واعتقادنا أنها من روائع الأدب الواقعي.
فإن وصف الشخصيات الهندية والانجليزية
وعقدة الشيال والتعويذتين من أغرب
ما اهتمى إليه مؤلف، وقد جمعت من
عجائب الرواية وسلسلة الاتصال بين الحوادث
ما يدل على علو كعبه. وقد عن على بعض
النقاد من الانجليزية (في مجلة بلاكوود ومجازين)
أنه لم يوفق إلى ترويع البطل برماشور لال
من جريس راوتش، بعد أن كان سياق
الحوادث يقتضيه ولسكن خلق لال نفسه
بفسر الأسباب الخفية التي نهته عن ذلك
بعد أن رأى ما حل بالكولونيل وبشكل
وزوجته ومعشوقها الهندي ولعل القاريء
المصري يروقه الحل الذي قدمه المؤلف،
دون الحل الذي اقترحه الناقد

(١) تحية الهند لوطنهم وتعريتها

عمى صباحاً أيتها الأم الرؤوم!

كنت وحق كالى (١) وكريشنا (٢) وفيشنو (٣)
أنظر ماء الازهار في عروقها تجري ، وأسمع العشب
وهو ينمو ، وأطرب لتغريد الطير ، وألح الأفاعي
تنساب بين الحشائش الخضراء فأطمئن لها !

حقاً لقد كانت تعروني لك كرى وطني هزة أي
هزة ! وكنت أحياناً ألتبس الألفه والهناء في صحبة
أبناء وطني الذين يطلبون العلم مثلي ، فكان هارديال
وشاتويادايا وسادومال من أعز أصدقائي لأنهم نزحوا
من قرية قريبة إلى قريتي ، وجمعتني ببعضهم مدارس
لاهور ، عاصمة مقاطعتنا . ولكن هارديال كان
درويشاً ، يجب فتاة هندية رشيقة القد ، فانتة
النظرات ، ويخفى حبها عن صحبه ما عداي ، فإنه
باح لي به ليلة في شارع الصقر الأزرق بهمرسميت
على طريقة غربية

كنّا في حفلة ليلية أحييتها مدام راما ودعت إليها
بنات الهند اللواتي يتلقين العلم بكليات البنات العليا
وينهن تلك الفاتنة جوخالي ، فغنت أغنية « أيها
الحبيب النائي ، هل نسيت ودادي ؟ » بصوت يشبه
صوت الملائكة ؛ وأنا أقول لك ذلك ولم أسمع صوت
الملائكة ، ولكنه في ظني لا يزيد على صوت تلك
الفتاة حلاوة وطرباً ؛ وقد تخير هارديال مكاناً قريباً
من قدي جوخالي وجثم فيه على صورة تشبه الركوع
وتشعر بالعبادة . ولكنني لم أدرك سره في أول
الأمس ، فلما انفض الحفل ، وخرجنا إلى الطريق
يلتمس كل منا مسكنه ، انحني هارديال على كتفي
وأخذ يمشي كمن يزحف ، وهو يبكي حتى بلل ثيابه ،
يبكي بكاء الطفل الذي لا يعرف له أباً ولا أمّاً ولا
مأوى ، فسألته في رفق عن سبب عوبله الذي آلمني ،
(١) و(٢) و(٣) آلهة من آلهة الهند ولها هياكل مشهورة

فقال إنه حب جوخالي الذي ملك لبه وهو لا يستطيع
أن يفاتحها به لأنه فقير من طبقة أقل من طبقها ،
وأنا أعلم حق العلم أن نفسه لا تحدّه بالزواج منها .
ومما زاد نار صاحبي المضي اشتعالاً أنه خلف وراءه
في الهند عروساً صغيرة في السن لم تشب عن الطوق ،
فقد زوجه منها أبوه وهما في المقد الأول دون أن
يحبب للمستقبل حساباً . إنها حقاً الكارثة ، وشكراً
لك يا أبي على أنك لم تهف مثل تلك الهفوة فتجعلني
نهباً بين عشيرة شرعية ومعشوقة مثالية ، لا أحب
الأولى ولا أنال من الثانية منالاً . فطيت خاطر
هارديال وجففت دموعه ، ولو استطعت لحملته كما
تحمل الأم ولدها

صاحب ذلك العقل الجبار في الفلسفة ، لقد
نال أعظم الشهادات وقرأ أضخم الكتب وانطوت
نفسه المطشى للحكمة على أعظم المذاهب وأعمق
المسائل . وها هو ذا بجاني بنوح ويعول كاليتيم الضال ؛
فلما وصف لي شعوره وهو جاثم تحت قدميها كانت
هذه الفكرة الأولى عن الحب التي دخلت قلبي . نعم
رأيت أزواج الانجليز في حديقة هايد بارك يتعانقون
ويتبادلون القبل ، ويتضاجعون على الحشيش
الأخضر في ضوء القمر ، وقد التفت الساق بالساق
على مرأى ومسمع بعضهم من بعض . ولكنني لم
أفهم أن هذا هو الحب ، لأنه كان مبتدلاً معروضاً
كما ترى الحيوان والطير في فصل الربيع وموسم
النتاج . أما البكاء والعبادة والأمل المنشود وهو
ضائع ، والحسرة على المعشوق والتحرق وهو أمامك ،
هذا هو الحب بعينه الذي قرأت عنه في كتب الهند
وورثته عن أهلي وقوي ، حب قوي كالشلال ،
ظاهر كقلب المذراء ، نقي كالفضة . أما شاتويادايا

فكان من قرية سودي في مقاطعة باهويال وهو هندوكي مثلنا ، وكان يحب فتاة انجليزية تنظم الشعر لأنه شاعر ، وكان أسود اللون والحدقتين والشعر ، وله شارب كشارب الصقر ، وصوت ممتلئ غليظ وقامة مديدة فرعاء وكل عضو ظاهر في يده ينطق بالرجولة الناضجة . وفي ظني أن الانجليزية وكان اسمها كيتي أحبته وفضلته على بني جلدتها البيض الشعر الماسخين الباردین . وكانت كيتي غنية ذات جاه ومال ، ولها قصر في جروفنور سكوير حيث كان يوافيها تحت سمع والديها وبصرهم ويجالسها في قاعة الاستقبال يشربان الشاي ويأكلان الفطائر الدسمة ، ويتطارحان الشعر ، ويتبادلان الغرام في غير تستر ولا حياء على الطريقة الانجليزية . فقد أذاها خطبتهما ، وأخذت كيتي تغدق على شاتويادايا من نعم والديها ، فألبسوه أحسن الثياب ، وعرفوه بأرقى الطبقات ودعوه إلى أغخم الحفلات ، وصار ابن الصياد (وكانت هذه حرفة أبيه) في مصاف العشائر العليا . وكان هذا الشيطان ينشد شعره في محافلهم وفيه الطمن المرير في بلادهم وهم لا يفهمون منه حرفاً . كما كان يحفظ قصائد وملاحم من شعرنا القديم يرويها فتنحدر من حنجرتة كالسيل المنهمر ، فتكاد كيتي بفشي عليها من افتتانها بكورتة الصارخة ، وهدير ألحانه

أما سادومال فكان ولداً قصير القامة ، خفيف الظل ، جاهلاً بالعلوم والآداب لم يشمر فيه تعليم ولا تهذيب . لا يقرأ من كتب الدنيا شيئاً سوى الأدب الروسي (ويسميه سكارموش ، أدب موسكوفي) ويعمن في دراسة قصص الجرائم والبيوت المسكونة

بالجن وخزعبلات إدجار آلان پو وإدجار والاسي ، ولكنه كان متصوفاً على طريقة راجايوجي ، تمرن عليها في الجبال المحيطة بقريته (ديرسال) وهي محط رجال دراويش الهند ، حيث يتعمدون الصمت وكم النفس وتركيز الإرادة ، والتحكم في شهواتهم فلا يأكلون ولا يشربون إلا في الزدري ، ولا يقربون النساء حياتهم . وكان سادومال في أول أمره يطعم في أن يصل إلى الإيمان الذي ينقل الجبال ويجفف الأنهار ويقتلع الأشجار في الحراج ، ويدعو الوحوش والطير فتلبى نداءه كما فعل بوذا أثناء خلوته تحت شجرة التين الخالدة . فسلك مسلك « الفقراء » وعاش عيشة الزهد والعفة وحصر نفسه في أضيق نطاق وكان من حسن حظها أو سوء بختها ، أن فخر من طول المراقبة المحتومة على كل يوجي في درجته البدائية فأنحدر من الجبل وفك قيود اعتقاله باختياريه ، واهماً أنه وصل ، فأدخله أبوه في مدرسة القرية فتفوق في الرياضيات ، وعلا نجمه بين أقرانه وبهر أساتذته في حل أعوص مسائل الجبر والحساب والهندسة ، وكاد يعرف بعض تلك العلوم بالغيب المطلق ، فلهذا ورد المدرسة مفتش المعارف الانجليزي ، أحفمه الهندي الصغير بعلمه السابق في حساب المثلثات واللوغاريتمات العليا ، والهندسة الفراغية ، فأوصى به ليوفد فوراً إلى كنجز كولج بلندن لتففيد الحضارة من مواهبه النادرة . فتكفلت الحكومة بتفقاته ، وتجلت عبقرية الهندسية في سماء الكلية ، وصار في مدى عام أمجوبة « كريستال بالاس » وهو الحى الذى فيه بنى المدرسة . إلى أن كان يوم ضاح من أيام الصيف ، فالتقى الفتى النابغ بامرأة إنجليزية

من قبل كالشجرة الجرداء في الأرض المقحلة ، إلى أن أنماها الفيت من أعلاها والرى من تحتها فأبنت وازدهرت ، ولكن على حساب ذلك البستاني المسكين وهو لا يدري أية جريمة وقعت عليه وأى ذنب جسم سقط على رأسه . وكانت كلما تعاقبت الأيام ازدادت المرأة شبقاً ، وتفنت في « دروسها » المشبعة لرغبتها . وكما بدا الهزال على صاحبها ، « علفته » بالنفاق الدسمة وأنخاذ الخناييص المدهنة ، وسقته الحرر الملهبة ، ليسترد عافيته ونضارة وجهه ويقوى على جهوده ، ولكن ما كانت تكيله له على مائدة العشاء ، تسترده بأرباح باهظة في خلوة الغرام ، الهادمة للقوى

وعند ما فتحت الكلية أبوابها في بداية العام الدراسي ، وعاد سادومال إلى صفوف الطلاب هناك أساتذته وبشروه بانتصار جديد في عالم الرياضيات البحت ، ولكن المسكين كان قد جهل كل شيء وعاد لا يعلم من بعد علم شيئاً ، فقد جف عوده ، وطمت معالم النبوغ من عقله ، وأمسى كالطفل لا يدري مما وعيه قتيلاً . وانطلقاً من المراجعة من صدره . وصار يجهل الجمع والطرح ، حتى جدول الضرب راحت من ذاكرته قواعده الأولية . فكانت جهالته أعجب من نبوغه . وأحسن أساتذته الظن به وعزوا ما جرى له إلى الإفراط في الاستذكار وحل المعضلات ، ولم يخطر ببال أحدهم أنه نتيجة تفريطه في عفته وصومه وصيائته وطهره . فنصحوا له بالراحة المطلقة حتى يستعيد صحة بدنه وسلامة عقله

وأمر الأطباء بتفسيره إلى ضواحي اشترنس ، في شمال سكوثلاندا ، يستجم في إحدى مصحاتها .

فتحدثت إليه وودعته إلى منزلها وسقته الحر وأطعمته لحم الخنزير ، وعلمته أول درس من مبادئ الغرام ، وكانت امرأة ضابط اسمه رب وبنكل برتبة كولونيل ، وقد زعمت أنه قضى نحبه في « ثورة لكنو » وورثت عنه مالا ونشأ وبعض الجواهر والتحف الجلوية من ضفاف نهر براهما پوترا . لقد استدرجته الخبيثة ، حتى فرط في عرضه ، وأضاع بكارته . وكانت تقول له : « لا يطق ظمأ الغرام في قلب فتى في ربيعته إلا امرأة في خريفها » فوقع في الحفرة التي أحكت مسز وبنكل حفرها ، وسلم نفسه إليها وأخذ يتردد عليها ويفشى مضجعها ، طوال مدة العطلة المدرسية . وكانت المرأة تملك « عوامة » في نهر تيمس يسمونها « بيتاً نهرياً » جهزت بوسائل الخلوة الصحيحة ومطالب الغرام ، فمن حانة صغيرة لا تصلح إلا لاثنتين ، إلى فراش مكنون ، وحمام جميل مزين بالقيشاني والمعدن الأبيض اللامع ، وهنا استولت المرأة على الشاب الهندي ، أمل قريته ومقاطعته ورجاء الحضارة في العلوم الرياضية ، حتى امتصت ماء الحياة من عوده ، فقال لها يوماً ، ولعلها التكتة الوحيدة التي نطق بها لسانه قبل مرضه : « لا يطق نار الغرام في قلب امرأة في خريفها ، إلا فتى في ربيع حياته » فوضعت يدها على فمه واحتضنته وأخفت وجهه الأصفر الناحل في حجرها وقالت وهي تبث بشعره الأسود المجمد : « أوه دارلنج »^(١) وقضى إجازة صيفية ، ما كان أحلاها في نظره ، وأجداها على المرأة الهرمة ، فقد سمحت ، واستداوت أعطافها واحمرت وجنتاها وأبرقت عيناها وكانت

في الدار التي كانت تسهر عليها مسز راوتش الفاضلة ولم تكن الدار مخنوقة بين المساكن كذلك التي لا تكاد تبصر السماء في قلب لندن ، ولما علمت مسز راوتش أنني ابن تلك البلاد ذات الشمس المشرقة والطبيعة الضاحكة والأنهار الجارية والأطياف المفردة أحب بفطرتي رطوبة الثرى وطرارة الروض - اختارت لي غرفة مظلة على بستان الدار وإن كانت قليلة الزينة ، وحسي بالطبيعة من خرقاً ومنمقاً ، فأجلت الغرف في نظري ما فرشها الزهر وعمرشها الكرم وأضاءها القمر ليلاً وشعاع من الشمس نهاراً (عند ما تجود بالاشراق في تلك البلاد المظلمة) وعطرها النسيم الساحب على الروض مطارفه ، الغامس في كؤوس الطل وأكواب الندى معاطفه ، ولولا اختياري الثوى في تلك الضاحية الضاحكة النائية عن جلبة لندن ونجتها ولجب مصانمها وصخب طرقها ما توافرت لدي تلك النعم

ودأبت على الدرس في ظلال تلك الحياة الهادئة وقد اخترت الطب وجعلت هدفي أن أخرج في الجراحة الحديثة فهي مبهولة في بلادنا

وكانت لربة الدار بنت وحيدة اسمها جريس ومعناها في لغة القوم النعمة والفضل والسنة والحسن والرشاقة ، وكانت صبية كاسمها رشيقة القدر ، لطيفة الشائل مهفهفة ممشوقة القوام ، غراء بلجاء مشرقة الطلعة وضاحية الجبين عندمية الوجنتين في الثامنة عشرة من عمرها ، وكانت هي الأخرى تدرس الطب في « جاز هوسبيتال » على مسيرة ألف خطوة من وستمنستر ، تغدو إلى الدرس مبكرة ، وتعود قبيل الغروب لتدرك مائدة الشاي الأنيقة التي تحسن أمها إعدادها ، وكانت تخدمنا فتاة بلهاء ورجل ألماني

ولم تلحق به « الطلبة » ، لا رحمة به ، ولكن خوفاً من بعد الشقة واتقاء للفضيحة . وعاد سادومال بعد ستة أشهر صحيحاً معافى ، ظاهر النضارة بادي القوة كأنه وعمل خارج من غابة لفاء . فلما لخصه الأطباء والأساندة قالوا : لقد نجا بدنه ومات عقله ، ولم يعد بصالح للعلم . فقد حبت موهبة الرياضة من صفحات ذهنه . وخبر له أن يعود إلى بلاده ليزاول مهنة آباءه وأجداده وهي « بيع العطارة » .. ولكن سادومان كان قد استطاب الحياة في لندن ، ودرج على أكل اللحوم وشرب الخمر ، فعاد إلى « طبيعته » وراعى الاعتدال في إطفاء نيرانها المشتعلة ، وهو الآن يعيش عالة عليها ، بعد أن قطعت حكومة الهند معونته ، فهو طالب في الاستيداع ، يتنقل بين العوامة والقيلا ، ويقضي شبابه في قراءة وصف الجرائم وبتقلب بين أحضان تلك الأخطبوطة النهمة التي لفت خراطيمها حول عنقه ومصدره وبطنه فلا يستطيع فكها كما

هؤلاء كانوا أصحابي الذين وقعت عليهم في لندن وقد اتخذت لي مسكناً في دار مسز راوتش في شارع شبردزبوش ، وكانت امرأة صالحة وجدت في بيتها دعة وراحة ، ووجدت منها ظئراً رؤوماً وعصمة وموثلاً من آفات لندن وشروورها . والبيت إذا أضاف حاجيات العيش ، والساذج الرخيص من كالياته كحسن الغناء وشجى الموسيقى والطبيب الحلال من آلات الخمر واللعب والممتع اللذيذ من الكتب والأسفار - إلى سكينه الجو وكرم الجوار ورقة آداب أصحابه وحسن مواساتهم وبشاشة قناعهم وضحكة النزاهة ودمنة الرحمة والمطف والحنان كان جمعة المسرات وحقية اللذات . وهذا ما وجدته

فقلت : لا ترى نحن الانجليزيات في هذا كبير عيب ؛ ونعلم أن السن ستكسب الشاب رزانة ووقاراً فلا ضير عليهم إذا استمتعوا في نضارة شبابهم باللهو المباح

فقلت لها : إنني أخشى عاقبة الحب لما رأيت من أثره في صحتي وبني وطني ممن طوحت بهم الأقدار إلى شواطئكم ، فقد ودعوا الثبات والحكمة والخير ، عند ما ودعوا ظهر الباخرة في تيلبرى^(١) وخلصوا عن أكتافهم ثياب الطهر والعفة

فقلت : أهذا كل ما يخيفك يا لال العزيز ؟ ألا ترى أن ما يصحب جمحائنا الشبانية ونزواتنا الصببانية من الخوف والروع هو أمتع ما فيها بل هو لذتها وفتنتها

فقلت لها : لقد أوصاني أبي أن أكون خيراً حازماً فإن لم أستطع فلا كن حذراً

فضحكت وقالت : إذن كن خيراً وحذراً ما شئت . ثم ما لبثت أن سكنت نائرة سرورها ، وفترت حمياً فرحها ومرحها ، ونهضت إلى البيانو فأطلقت ألسنة العاج بضفط بنائها ، أنعاماً حلوة هادئة ، ثم استدارت على مقعدها اللولبي وسألتني رأيي في موسيقاها فأطربتها لأنني طربت حقاً من توقيعها ، فقالت لي وقد تظاهرت بشيء من الخوف يخالجه شيء من الحياء والخفر : ألا تصحبني مرة يا مستر لال إلى ملعب التمثيل ؟ فإنهم يمثلون على مسرح جاريك^(٢) رواية « تمسكنت فتمكنت »^(٣)

من وضع جولد سميث

اسمه فرتيز . وكنت ألاحظ الانجليز يفرحون باستخدام الألمان ، لما في ذلك من الشجاعة في أبناء الأجناس الأخرى ، ورخص أجورهم ، وقناعتهم في الطعام ، وشدة طاعتهم ، كأنهم آلات صماء ، تلبى النداء ، وتذكر مطالب السادة بالإشارة والهمس دون الصياح والثرثرة . فكانت إدارة الدار في نظري كحركة الساعات الدقيقة التي تصنع في جرنيويتش فلا تقدم ثانية ولا تؤخر ... فما أعظم الفرق بين الحياة هنا والحياة في أوطاننا التي تشبه آلة بخارية فقدت عقلها !

أما جريس أو نعمة التي كانت تؤاكلني وتجالسني وتسامرني ولا تفارقني إلا عند ما يأوى كل منا إلى مضجعه فما رأيت إنساناً أخف منها إلى المزاح المباح والدعابة البريئة ، ولا أروح إلى المفاكهة والمعابشة التي تنم عن طهر الشباب وطموحه دون التعدي إلى الاستهتار والمغازلة ، وما أظنها استباححت ملاطفتي إلا رحمة بي وعطفاً عليّ ، فقد قالت لي يوماً : لماذا أرى بك سيما الحزن والاطراق والكآبة ، فقلت لها : إنك يا نعمة لتقولين هدياناً وسخفاً ، فأطرقت ثم قالت :

لملك عاشق مشغول بمن تهوى في الهند عن الناس كافة ! أهي جميلة تلك التي خلفتها في وطنك عاكفة على عبادة أوثانها ، وعلى انتظار أوبتك ؟ فقلت لها : إنك والله لترجين بالغيث يا آنسة . فرنت إلى طويلاً وأدامت نحوى كرة الطرف مبدئة ومعيدة ، ثم قالت :

— أرى غيرك من أبناء وطنك مفتونين بالغانيات شديدي الطيلاّب لهن والهيام في أثرهن قلت : أيروق لديك أن يفتن الطالب الغريب بالغانيات وأن يهيم في أثرهن ؟

(١) اسم ميناء لندن

(٢) مسرح شهير باسم دافيد جاريك من أشهر الممثلين

(٣) She stoops to conquer

ما أشعرني نوعاً من المهابة لم يخل من الطرب واللذة
وقالت :

« ألسنت أنت يا مستر لال القائل لي على عتبة
الملعب : إذا أحببت أن نبقى على تمام وتمام ووفق ،
فتكرمي عليّ بأن لا تذهلي عن فروض الآداب بيني
وبينك ؟ فما لي أراك أول من ذهل عن شرطه »
فسكت ولم أحاول بعد ذلك إعادة الكرة ، وقد
أحسست أنني تعديت حد منطق ومنطقتي وبرزت
من ثوب الخير والحذر الذي أسبغته عليّ وصية أبي
فتواريت فوراً في حجابي وتداركت أمري . ولما
أسدلت الستار على آخر المناظر نهضنا وكان ذلك
قبل نصف الليل بساعة . فدعوته إلى « وجبة
العتمة ^(١) » كما هي العادة بعد الخروج من الملاهي
في تلك الديار التي لا يقنع بنوها بأقل من خمس
أكلات بين شروق الشمس ونصف الليل ، بعضها
غزير دسم وبعضها لا يصلح إلا للزهاد فاعتذرت
وقالت : إن أمي أعدت لنا كل شيء . فلما بلغنا
الدار عاودها سرورها وبشاشتها وثرثرتها وأمسكت
بأطراف أنامل على طريقة الأطفال المرحين . فلما
أبنا إلى غرفة الخوان ونحن لا نزال في ثياب السهرة
استقبلتنا الوالدة باسمه هاشة ، وكانت المائدة منصوبة
والألوان مصفوفة ومسز راوتش جالسة ، وقد
تعطرت وتدهنت وتجملت وتزينت فكأشها إبريق
الرحيق ، وقد شغلت نفسها بتقطيع رغفان الخبز
قطعاً رقاقاً وتجزئة قطع اللحم من كتف العجل
الحنيذ أجزاء دقاقاً ، وأقبلت على فتاتها وعلى تحبذ

فقلت لها : لا بأس ، فإنني أدعوك إليها غداً
إن شئت

وكان في هذا الوعد البري ما أفاض السرور
بين جوائح الفتاة وأشاع الطرب في فؤادها
وأقبلت على أمها تستأذن فاذنت لها ، وفي
عشية اليوم الموعد أخذت تعد ثوبها الجديد الزاهي
وتجربه فالفقه محكماً ، واستعرضت خيالها في المراة
فأعجبها وراقها ، وأقرت أمها وخدمتها البلهاء أنها
لم تك قط في أغر حللها أحلى وأحسن منها في ثوب
السهرة . ولما حانت الساعة السابعة تاهبنا للخروج
ووضعت حول عنق وسدرى ذلك الشال العزيز
الذي أهدته أمي ليقيني شر البرد في تلك البلاد
الفارسة ؛ ولا أدري لماذا قلت لها ونحن نخطو عتبة
الملاهي : « إذا أحببت أن نبقى على تمام وتمام ووفق
فتكرمي عليّ بأن لا تذهلي عن فروض الآداب بيني
وبينك » فصعقت ولم تنظر إلي ؛ ولما جلسنا في القاعة
المضاء الهادئة لصقت بي وأشعرني حرارة بدننا
الغض الدافئ ، وأخذت تشرح لي مناظر المهزلة
موقفاً إثر موقف ، فأطربني صوتها في همسها ورخامة
نغمته ولذته فوق ما أطربني حلاوة شمائلها وخفة
روحها وذكاؤها المزوج بالسداجة والبساطة ،
فازددت إليها ميلاً وبها سروراً ، وراحت نفسي
لسماع كلامها العذب ، وهفت جواحي ؛ ورأيت
في ظلام الملاهي عند ما أطفئت الأنوار كهلاً يقبل
فتاة بجواره فأردت تقليده ... أنا الذي ألزمت
« نعمة » فروض الأدب ، قد حاولت إسقاط
الكلفة ورفع الحجاب بيني وبينها في خلصة من
جماعة النظارة ، ولكن « نعمة » نفرت وتراجعت
ثم استشعرت من سياء الوقار والجحد والرزانة

(١) يأكل الانجليز خمس مرات في اليوم الافطار والغداء
والشاي والعشاء ووجبة العتمة واسمها Sittler وهي أشبه
بالسحور عندنا

بالوصية ، والأخرى تسألني عن شال كشمير ، والتميمة التي وعيتها . وأعادت تلقني إياها في المنام « يا راما كريشنا وكالي وفشنو أيتها الآلهة المحجبة ، بحق أسرار أسمائك ، وأنقام ألحان ترتيل الكهنة في أفنية هياكلك ، رُدِّي عليّ ما فقدت ، بالو ! بالو ! هالو ! هالو ! هالو ! مستي ! مستي ! مستي ! »

وما كاد الصباح يحدر لثامه حتى كنت قد هببت من نومي وابست ثيابي وأسرت إلى كلية الطب التي أتلقن علوي بين جدرانها ، وأثناء ركوبي في الحافلة ^(١) ، وهي من طبقتين لحت عيني طرف رداء نعمة الأزرق فأهويت سريعا إلى لقائها فابتسمت وقالت إنها سبقتني في البكور فأقبلت أثنى على جهالها وحسن هندامها . وسرها ذلك الثناء فضحكت ولكنها ما لبست أن أبصرت على وجهي شيئا من دلائل الهم والقلق ، فسألتنى ، فاعترفت لها أن حادثتي معها بالأمس كانت زلة وخطيئة وزروة من نزوات الطيش والنزق وأثنى على ما فرط مني نادم ولما بدر من غثي واجم ، وأثنى قد عوقبت على ذلك بضياح شال كشمير وفقده

فقلت إنه لا يروح أبداً عليك فان أهل بلادنا ذوو أمانة ، وسأتولى البحث عنه بنفسى في الملعب وأغدو إلى مستودع الأمانات المفقودة حيث يعرض كل مانسيه ذووه وذهل عنه أصحابه سواء أكان إبرة خياط أم فيلا أبيض ! فودعتها وانصرف كل منا إلى معهده . وما كدت أطوى بضع خطوات حتى تذكرت التيممة فصرت أتلوها لعل آلهة الهند تجود عليّ برد أمانتي ، ولما آن وقت عودتي من

منا تنكيرنا إلى المثوى وجمال ثيابنا ولا سيما « سترة سموكنج » التي كنت أختال فيها اختيال أمير ساحر خارج من صفحات ألف ليلة وليلة . وفي تلك اللحظة الباهرة تذكرت شال كشمير ، فقد نسيتته وأيقنت أنه ضاع إلى الأبد ، ولكنني لم أنطق بكلمة ولم أنصت إلى أدنى كلمات الوالدة وابنتها ولم أع بما قالت كثيراً ولا قليلاً . فقد كان ذهني مشغولاً بذكرى المساء وما كان من حراجه ، وكان فقد الشال في المكان الأول . فأنجيت على نفسي باللوم والتنكير ووخزات الضمير . ثم انتقل ذهني إلى حادث القبلية التي لم أظفر بها ، وعبثاً حاولت إقناع نفسي بأن مسلّكي مع الفتاة نعمة لم يتجاوز حد اللياقة ، وأن هذه الرغبة التي أعقبها الرفض والجفوة لن تكون لها نتائج خطيرة . لقد كان ضميري في هذه المجادلة السرية أعلى صوتاً وأقوى برهاناً من عقلي ، وجعلت كلما تذكرت نصيحة والدي وهدية أمي نالني كرب وضيق . أما نعمة أو منية فكانت في أشد حالات السرور والجدل تلهم اللحم والزبدة والقطر ، وتكوم أضعافها في صحنى ملححة عليّ أن أطمعها لأسترد ما فقدته من قوة بالسهر والتعب خارج الدار . وأخذت الأم تسرد أسماء من عمروا في الحياة الدنيا حتى تجاوزوا المائة ، وأن العلة في طول أعمارهم لم تكن إلا كثرة التضم والقطم ، وحشو بطونهم بالشحم واللحم ، وخصوصاً « وجبة العتمة » التي تكون أسهل الوجبات هضمًا إذا تلاها النوم مباشرة . وانتهت المأدبة على خير وصعدت إلى غرفتي . ومن فرط انشغالي بنعمة تراءت لي في أحلام الكرى تسبيني بسحر الحظاظها ، وتصيبني بجلاوة أنفاظها كما رأيت أبي وأمّي : أحدهما يذكرني

الموعود على خيانة الأمانة ، ولكن انتظارنا ذهب
أدراج الرياح

وفي يوم الأحد التالي وكان صباح يوم قار قارس
صافي الأديم ، لا يكون إلا في بلاد الإنجليز في فصل
الخريف خرجت للتنزه مع صديقتي في هايدبارك ،
ولما دنونا من مسارح الخيالة ، وهي طرق أعدت
للفرسان دون الراجلين بصرنا بفارس ممتط صهوة
جواده قد شخ بأفقه صلفا وصمر خده كبرياء عليه
قباء مسدل الهداب ، بفاقم وسنجاب ، وقد لف
حول عنقه شال كشمير الضائع ، وكانت نعمة هي
التي رآه وعرفته . فقالت لي هيا نستوقفه ونطلب
إليه شالك فقلت لها : ولو قال لنا إنه حفيد لورد
عتيق حكم إحدى مدن الهند وسامها ، فورث عنه
ذلك الشال ، أو أنه شراه من سوق المزاد في معرض
كرايستى فإذا يكون الجواب ؟ فقالت نعم على الأقل
أن لشالك مثيلاً في بلادنا . وإذا كنا نتناصح
ونتشاور ونتناول وتداول ونحن نرقبه عن كثب
كان فارسنا الملقع بشالنا أو بشال يشبهه ، قد اختفى
عن نظرنا في حجب العروق والأغصان وسجوف
الورق والقضبان . فقالت لي نعمة ها قد أضعت
الفرصة السانحة ومكنت ذلك الراكب على مرجه
من الفرار . فضحكت وقلت لها :

— حقاً يا نعمة أننا لا نستطيع حل هذا اللغز
وتفسير هذه الأحجية

وفي اليوم الرابع فرأت التيمة فرأت الشال
حول عنق كهل سمج كان بخطو باتزان في شارع
أ كسفورد ويتنقل بين معارض الخازن والتاجر
يقلب أحفانه الثقيلة في صنوف البضائع فقلت هذه
المرّة لن يفلت مني ولو لقيت في سبيل استرداده وبالأ
(٤)

الكلية أخذت أنلو « غريمتي » ولم أكد أفرغ
منها حتى لمحت شالي على ظهر امرأة تسير مرتكئة
إلى ذراع رجل طويل ، يلبس قبعة اسطوانية الشكل
سوداء فاحمة ، فجثت الخطي حتى كدت أدركهما .
وصرت منها قيد أقدام معدودة وإذا بهما يستوقفان
سيارة ، ثم أخذتا ينهبان الأرض بها فرجعت أدراجي
كأسف البال آسفاً ، ولكنني شديد الفرح بنفوذ
السحر الهندي في قلب لندرة .

ولما عدت إلى الدار لقيت نعمة فأخبرتني أنها
أوعزت إلى بعض الصحف بنشر إعلان صغير في
عمود الأشياء المفقودة نصه هكذا « طالب طب
هندي يرجو من عثر بشال كشمير صغير في ملهى
جاريك أو في سيارة حافلة أن يرده إليه بدار مسر
رواثن ١٧ شارع شبردزبوس همرسميث وله
الأجر والشكر » وكانت الصحيفة قد نشرت
الإعلان في مطبوعة العصر بعد أن تقاضت أجره
نقدأ قيمته شلنان واسمه هاف كراون ، فضحكت
كثيراً من سرعة خاطرها ولباقتها وصحبها إلى حديقة
الدار وجرت بيننا جداول الحديث سحراً ، ورضابا
سلسالا ، نأخذ في شتى فنون من الهزل والفكاهة
وضروب من المطاوعة والمداعبة ، وما إلى ذلك مما
يكون بين صديقين مؤلفين على عفة إزار وتقاو
جيب وطهارة نطق ونحن فيما دون ذلك على تمام
حرية وطلاقة ، مباح لنا كل ما يطيب ويصفو
ويمدب ويملو تمتع الجليس بالجليس ، وتلذذ الأنيس
بالأنيس ، وأخذنا نرقب عودة شال كشمير ونتفكه
بالتكهن بحال حامله إلينا . أيكون تلك السيدة
وبملها ، أم صانع متواضع ، أم لص فضل الجزاء

لا تبدى أدنى تسخط أو غضب أو تظهر أقل تمجب أو اندهاش أو تبرم من مسلك هذا الشاب ...
فقال الانجليزى : أظنها ألوبة جديدة من
الأعيب الهنود الجمة ، وقد رأيت في الهند مئات
من أمثالها

فقال الشرطى : دعه يتأمل الشال عن كشب ،
فلن يخطفه حتى ولو كان ملك يمينه إلا إذا أقر
واعترف ، وإلا فهو يردّه إليك بسمع منا وصرأى
فحنى الكهل الكريه وقال : هذا كذب
وبهتان . فض الله أفواهكم إن كان هذا ما ترمعون ؛
أما والله إنهم لى غاية من القبح والسماجة . إننى
لا أفرط فى شالى ولا أسمح له البتة بلعسه ، ولا وجه
للمقارنة بين شالى الثمين وشاله المدعى ، كما أنه لا وجه
للمقارنة بيننا ، فلسنا من جوهر واحد أو طينة
واحدة ! لقد كنت فى الهند من كبار الدولة وذوى
النفوذ والسلطة والمكانة واسمى كولونيل ريب
وينكل ، حائز لنيشان شمس الهند ووسام كعب
الغزال وربطة العنق من طبقة جَوَّال ... فتأخر
الشرطى خطوات وضم ساقيه وقدميه ورفع يديه
بالتحية العسكرية ، ونظر إلى برزانه وكبرياء وقلة
احتفاء جديدة أن تصدع قلب أشجع الرجال وأشدّهم
بطشاً ...

فقلت للسهكل : عفواً يا سيدى ! هبنى من
السماجة والغرور والغلواء كما وصفت ، فأين من
علمك جهلى ، وأين من أدبك سذاجتى ، وأين من
رقتك وظرفك جفائى وغلظتى ، وأين من ذكائك
وفطنتك غبائى وغفلتى

فأثنى الشرطى على أدبى ورمقنى الجمهور بنظرات
عطف مصطنع وأخذ كل ينصرف إلى شأنه

فدثوت منه إلى أن أدركته فرفعت قبعتى أمامه
وانحنيت مفرطاً فى الأدب فبدرنى بقوله : لست فى
حاجة إلى ترجمان فهذا وطنى ومسقط رأسى وكفانى
ما عانيت فى بلادكم أثناء الخدمة المدنية والحربية .
فقلت سيدى لست ترجمانا ، ولكن ...

قال : إذا أردت الاستعلام عن شيء فهناك رجل
الشرطة يجيبك عن كل سؤال
قلت : ولست غريباً عن لندن ومسالكتها
فأنا طابا ...

قال : إليك عني واقصد دار سير كيرزون فهو
رئيس بعثات الهنود التعليمية ويعطف على ذوى
الألوان السوداء والسمراء والصفراء

فقلت : ولست تابعاً لاحدى البعثات ، ولكن
اعتماداً على مكارم أخلاقك وسعة صدرك وارتكنا
على ما لبى جنسك فى قلبى من لطف المكانة وتقتى
بجميل صفحك ومغفرتك أريد هذا الشال

قال : الشال ؟ أنطمع فى أن تنزع ملكيتى
نهاراً جهاراً فى أكسفورد ستريت ، إنك لشيوعى
جربى وبلشنى موسكوفى خطر

قلت : لا يا سيدى إنه شالى الذى فقدته من
بضعة أيام ، وأعلنت عنه فى الصحف

فقال الرجل : وقد بدا بهيئة الدب المسلسل
الذى يهدر فى ساحة النظارة فى حديقة الحيوان
« هل غاب عنك رشذك وغرب عقلك ؟ متى كان
دأبنا وشيمتنا ونحن مهذبو العالم ومؤدبو الأمم أن
نختلس ثياب رعائنا ؟ »

وكان جمع صغير من المارة قد تكأ كأ علينا ،
فبادر رجل الشرطة إلينا ليفرق التجمهر على عادته ؛
فلما سمع روايتى قال لمواطنه المتفطرس : عليك أن

الرجل يسألني عن زوجته ومقرها وملجأها وهو تارة يتصنع الوقار والرزاة ويتكلف التؤدة والرصانة شأن من لا أكثرث عنده للمرأة ، ولا اهتمام ولا مبالاة ، وطوراً ينظر في الفضاء نظرات الحنق تتطاير من عينيه الغضبي تطاير الشرر عن ناره ، والنبل عن أقواسه وأوتاره . وأنا ألعب دوري من التشاغل وقلة الاكتراث وعزوب الذهن وأتمادى في أساليب التصنع والتكلف أتكلم من خلال أسناني بالانجليزية فقط ، والرجل يرسل زفرات الغيظ ولا ينبس

وأخيراً قال لي : كيف عرفت امرأتى الآبقة الناشز ؟ قلت : هات الشال أولاً وقل لي كيف وصل إليك فخلعه عن طوقه وقال : وجدته على أحد مقاعد ملعب جاريك . وكان الشال مبخرأ معطراً ، ولم يمس شيئاً من بدنه سوى غلالته الناصعة اللامعة فأخذته وقلبته بين يدي وتعرفت فيه كل خيط وفتلة وعرزة وزهرة منمقة

وقلت له : أريد أن ترى امرأتك ؟

قال : نعم واهبك تعويذة هندية شريتها من فقير يوجي من قرأها على امرأة خائنة فإنها تفقد كل من يرضى بعشرتها عقله ولبه ، فإذا تلاها الرجل المسحور عادت إليه قوة تفكيره شريطة أن يهجرها في المضاجع

قلت : هات تعويذتك

فأخرج من جيبه حجاباً مثلك الشكل وفض غلافه ، وأبرز وريقة مكتوبة بالسنسكربت وهو لغتنا المقدسة

قلت له : تعويذة بتعويذة ، وأخذت أنلو تعويذتي . ولم نكد نفرغ من شرب الشاي حتى

وفي أقل من لح البرق تذكرت اسم ريب وينكل . أليس هو نفس الاسم الذي تحمله تلك المرأة عشيقه سادومال طالب الرياضة الذي أفلس عقله وتدهورت مواهبه . ولم أشأ أن أفر من الميدان مهزوماً قبل أن أرى بآخر سهم في كنانتي فقلت للكهل :

— إن كنت حقاً كولونيل ريب وينكل ، فقد نلت منك شالي بغير تعب ولا نصب ، وما عليّ إلا أن أوسط لديك زوجتك مسر وينكل التي تزعم أنك قضيت نحبك في ثورة لكنوع مساء ياسيدي ولم أكد أنطق بهذه الكلمات القليلة ، حتى رأيت شهامة الحاكم القديم نهار وتهدم فدفن إلى مادأ يده للمصافحة ونحى الناس جانباً وسارني وقال : هل لك أن تشرب ممي قدحاً من الشاي في هذا المقهى وأشار إلى أحد مغاني الشراب على مقربة من موقفنا . فاعتذرت إليه محتجاً بأن الرعية لا تجالس الملوك والعبيد لا تشارب السادة على سباط واحد ، وأن طينته الناصعة تأتي أن تخالط طينتي القائمة السوداء .

فقال : أستغفر الله يا ولدي ، وأخذ يعطرنى بسيل من المعاذير بالهندوستاني وهو لغة بلادي ، وكان العفريت الأشيب يتكلمها كأفصح علمائها الذين ملكوا ناحيتها فنال إعجابي بقدر ما حاز من عطفي . أليكون هذا الرجل المتعجرف المتكبر المليء بالعنجهية من رأسه إلى قدمه ، السباق في حمل السيف والرمح والواقف على أسرار اللغات ، زوجاً لتلك المستهرة الخليعة التي تصيدت أحد الهنود النجباء وأطفأت سراج عقله الوهاج ؟ وأخيراً قبلت دعوته ودخلنا إلى أحد مشارب الشاي . وكان

قديمة فرق الدهر بينهما ولكننا كنا في شغل عن
لذة الطعام والشراب إلا المسكين الداهل سادومال
فانه أ ك ب على ألوان الحلوى والكعك والبودينة
والشطائر اقمأما واقتفافاً وعلى أقداح الشاي ارتشافاً
واشتفافاً . وجعل يمزح ويضحك من أمازيحه
وزداد هذراً وهراء من آن إلى آخر فلم يبق له من
الكلام غير هذا وكان الكولونيل ريب وينكل
يتحرق على محادثتي فسألني بالهندوستاني أن ألقنه
التمويذة فقلت : مالك بها وقد تسلمت أماتتك وردت
إليك بضاعتك ، ولم تقل لي كيف كان شالي على
أقفية غير قفاك الناعم المذهب

فقال : أقرضته شقيقتي ذات صباح وخرجت
به إلى حديقة هايد يارك فقلت : هل كانت على رأسك
قبعة عالية في الأولى ؛ وكنت ممتطياً صهوة جوادك
في الثانية !

فقال : نعم ثم امتقع لونه وقال : لم أكن أعهد
سحركم نافذاً بهذه السطوة . قلت : تراه أشد نفوذاً
في صاحبي الذي يليك ولا يبي ما تقول بعد أن
أفقدته تعويذتك صوابه ، وكانت المرأة تحرق الأرم
ولا تدري من أين سقطت عليها هذه الكارثة وكان
غيظها على أشده ، عند ما نهضت وصاحت زوجها
الذي أمسخت رأسه بما كان ينقص فخيتها عند ماعد
من سكوتلندا كالوغل الغير متبوج ... وسحبت
الشاب الداهل من كتفه وخرجت به وتركت
الزوجين بنضجان في صلصتهما !

وكان أول ما فعلته أن تلوت عليه التمويذة
السنسكريتية التي تشفى من جنون الشهوة وما كان
أعظم دهشتي عند ما رأيت سادومال يرتجف ويقطر
جبينه عرقاً ثم يفتح عينيه على النور وقد وعى .

دخلت علينا مسز ريب وينكل مستندة إلى ذراع
مواطني المنكود سادومال الذي فقد ذاكرته وسمي
حتى صار كالخنوص الخصى . وكانت المرأة مطلوة
مخللة وقد أقيمت « أرملة الحى » الطروب تسمى
مطرقة منكسة لا تبصر شيئاً . وكان رفيقها الهندي
قد فقد ذاكرته أتم فقد وأكمله فرآني ولم يتعرف
على ، والمرأة تقوده كما يقاد الدب الأعمى ، وقد
أمسى أداة لهوها وماء نارها التي لا تخمد

أما هي فعند ما فتحت عينيها ورقعت رأسها
لترى المكان فابلت أن عضت على شفتيها كمن
بوغت بكارثة أو فاجمة ، لقد راعها وهالها أن تبصر
زوجها في صحبة شاب هندي ، ولم تقدر أن تتغلب
على ما اعترأها من الارتباك والحيرة ، وكانت قد
أكمت على بشرة وجهها وجلدة يديها طبقات
متراكمة بعضها فوق بعض من الدهان الأبيض
والأحمر وحملت نفسها من الزخارف والحلى ما يروح
تحته البازل فهض الكهل الحربي إليها وقال لها
والهندي المجدوب يسمع ولا يبي افرط ما عمرأه من
الخيال :

« لقد كان من المستحيل على غيري أن يعرف
شخصك في هيئة تلك السيدة المتنكرة في أكتف
طلاء من الأصباغ والأدهان ، وقد ازدحت عليك الحلى
والزخارف ازدحام النجوم الشوابك في أديم السماء ؛
والحجب المتكاثف على بساط الماء . وانحنى على يدها
ليقبلها غير أنه عند ما لمس أناملها خيل إليه أنها
كانت ترتجف . ثم دعاني إلى مجلسهم ودعا بفظائر
وقطائف ونواعم وأقداح وأكواب ليوم الخادم
وهي فتاة رانقة الحسن مزهقة الحس إنه ظفر بصديقة

فمنطلق بالهندوستاني الذي كان نسيه ، وأخذ يذكّر أرقاماً ولو غارثمات عالية . فقد عاودته مواهبه وعادت إليه علومه كاملة ، وعذ ما رجع إلى حظيرة الكلية بعد أيام ، أقبل عليه الأساتذة يفحصونه فإذا به كما كان في بداية شأنه عقل فياض ، وفكر نافذ وإدراك لمعيات المعادلات الجبرية وحل لأعوص المسائل الفامضة فقال له بروفيسور كنجزلى : الآن تستطيع الحضارة أن تستفيد بعلمك وكتبوا إلى حكومة الهند يستردون نفقاته ومخصصاته . أما أنا فقد عدت في تلك الليلة إلى بيتي في شبردزبوش فائراً بشال كشمير الذي ضاع وبمواطني المسكين الذي رددت إليه عقله بالتمويذة التي اقتنصتها من زوج عشيقته وقد تعلمت أن كبرى النتائج قد تبني على أهون الأسباب ، وبقي على أن أدخل البهجة على قلب نعمة بالعمور بالشال دون أن أطلعها على التفاصيل الأليمة التي صحبته فما لها ونظرة الضابط المنكوب والزوجة الخائنة والهندي المذهول وسحر هاروت وماروت ! فهذاني تفكيري إلى هذه الطريقة ، وهي أن أزعج أننى التقيت أمام البيت برجل يحمل الشال تلبية للدعاء الذي أذاعته في الصحيفة السيارة وإن أننى على بديتها وأمانة شعبها وأحمل إليها هدية صغيرة جزاء وفاقاً على ما قدمت يداها من خير فلت إلى دكان جوهرى ، واشتريت خاتماً ذهبياً بفص من الياقوت الأزرق ، ولما نهضنا عن المائدة مددت يدي بالهدية وقصصت على نعمة وأما القصة الملققة النعمة التي نجوت بها من مأزق التفسير والشرح الطويل وذكر مساوى الناس للناس في وطنهم فما هكذا يكون عرفان الجليل . ففرحتنا وزادنى التوفيق كرامة وعزة في نفسيهما

وواصلت الدرس حتى جرت عقبة الامتحان الشديد في جاز هو سببتال ونلت أجازة الطب المحفوفة بالمصاعب والمكاره واعتزمت العودة إلى وطني ؛ فلما استشمرت الأم وفتاتها ، (وكانت هي الأخرى تخرجت وحازت لقب مولدة من الدرجة الأولى) اعتزمت على الرحيل ، أعدت مسر راوتش حفلة جميلة دعت إليها فضليات نساء الحى وبناتهن ولقيفاً من أجل الشبان وأنصرهم فأقاموا مرقصاً ومقصفاً ، وبعد نصف الليل انتحت بي الأم ناحية وقالت لى : « خبرنى الآن يا دكتور لال ماذا ترى في اتخاذ زوجة تحبك وتطعمك وتعنيك في عملك وتلد لك أولاداً لطفاء يجمعون بين جمال البيض وفطنة الهنود وبينون دعائم الجبل الجديد في وطنك الأول ، بعد أن صارت هذه الجزيرة ووطنك الثانى . ولعلك تخطب فتاة لها قرابة ملاسقة ورحم ماسة برجل من كبار الدولة وذوى النفوذ والمكانة ، يدعى سير راوتش ، وأن الاتصال بهذا الكوكب اللامع في سماء السياسة عن طريق المصاهرة قد يجرك خيراً كثيراً وعملاً كبيراً » ، فقلت لها : « ومن تلك الفتاة ياسيدتى ؟ » قالت : « ابنتى جريس راوتش التي خالها ذلك الرجل العظيم . إنها نعم العروس يا بنى وإن لم تكن تعلق بها فإن الحب نتيجة الزمن والمعاشرة . إننا في بلادنا نخطب لبناتنا كما نخطبون أنتم لأولادكم

فقلت لها امهلينى يوماً ، حتى تستدير الفكرة في رأسى ، فإني لا أرغب أن أقطف زهرة الزواج على غرة ، ولا أريد أن أعمر صفاء الليلة ، ولا أعلم في الحق بم تأتى بها مشورة الرقاد ، فالليل يحمل النصيحة الحسنة والرأى الصائب على أجنحة الأحلام الذهبية . فلا تأخذى قولى هذا على أنه قبول أو عدول

قالى الند . وكان نظام الحفلة يقضى أن يختار كل فتى فتاة يحاصرها فى الرقصة الأخيرة ، فيفهم الحاضرون أنها « قلبه العذب »^(١) وقسيمة حياته فى المستقبل القريب أو البعيد ، وسرعان ما تناول كل شاب يد واحدة من هؤلاء الشقراوات ذوات الوجوه الحمراء والعيون الزرقاء و « الضب » البارز والأذقان المستطيلة ، وبقيت فى نهاية الأمر نعمة ولم يتقدم إليها أحد ، كأنها مؤامرة محكمة التدبير ، محبوكة الأطراف ... لله ما أقدر هؤلاء الإنجليز على توريط الخلق وتسخيرهم لأغراضهم ! فتقدمت إليها على كره وفعلت ما فعل شبيب الحى من عناق وتقبيل ، ثم دعوتها للرقص

وفى الصباح قالت للأُم : « إن الزواج لم يخطر لى على بال الآن ، لا لعيب فى بنتك المحبوبة ولا لعجز فى من تأسيس بيت تكون زينته ، ولكن لأنى لا آنس فى نفسى القدرة على مسرتها وإسعادها » فقالت : « عجبا لك يالال ! أبطل هذا الرفض تقابل رغبتنا . ما هكذا يكون البر والوفاء ولكننا لا نرغمك » ، وترقرقت فى عينيها دمعتان أبى كبرها أن تنحدرا إلى وجنتيها

وتسألنى عن هارديال وشاتويادايا وما جرى لهما . أما الأول فقد سافر إلى أمريكا واشتغل بالسموعة والدجل فجمع مالا طائلا بعد أن طلق الفلسفة التى لم تقنه فتبلا ، وذلك باستغلال غفلة خواجى الجمهورية النائبة ، وعاد بالمال طليقا حليقا أنيقا ، وأرغم جوخالى على الزواج منه ، ثم حملها إلى شيكاغو ليواصل عمله فى « كشف القناع عن علاقة الروح بعلم الغيب واكتشاف مناجم الذهب ورفع النقاب

(١) القلب العذب : العشوقة Sweet heart

عن أسرار الكون وعلاقتها بالحب والغنى وكسب سباق الخيل قبل دخول المراهنة وعلاقة النجوم بحظوظ الأحياء وتحدث أشباح الموتى لدوى قراهم عن حوادث المستقبل وفوز الحزب الديموقراطى وانتخاب بريان » ، واندماج شاتويادايا فى المجتمع ، ورشحه حموه للانتخاب عن حى أبوستون باسم الاشتراكية الحمراء ومقاومة الاستعمار والحكم الداتى لايرلاندا وسكوتلاندا وبلاد الغال ، وأعاتته زوجته الشاعرة بقصائدها الرنانة ومدح مناقبه لدى نساء العمال ، ومن قولها : « إن الرجل الأسود يخدم الجنس الأبيض فى المستعمرات منذ مئتي سنة ، وقد آن الأوان ليخدمه فى برلمان الوطن فهل ترفضون ؟ فأجابه الناخبون : أوه ! نفير ! نفير !^(١) وفاز شاتويادايا بمقعد دافء فى وستمنستر وقد صار حلية المجلس وزينته وتفسيرته ، كالحال فى خد الحسنة

أما أنا فعدت إلى وطنى حتى بلغت أهلى وبيتى بعد أن نفضت فى الباخرة الإنجليزية التى حملتنى من لندن إلى بومباى غبار حدائى ، وخلعت ثياب اللؤم والخداع ولبست ثوبا من « صنع بلادى » وتلفمت بشال كشمير الغالى وسألتنى أمى وهى تضع فى فمى بيدها الكريمة اللينة طعام وطنى اللذيذ ، بماذا عدت إلينا يالال ؟

قالت : بعلم الطب يا أماء ، على أحسن ما أتقنه أعداؤنا وراء البحار ، وبحاجة أخرى هى أعز من العلم وأعلى وأشرف ألف مرة

قالت : ما هى ؟ قلت : عفتى وبكارتى وعقيدتى ، فيمكننى أن أقول لك : إننى لم أعشق امرأة غير أمى ، ولم أعبد إلها غير ربى ! محمد لطفى محمد

(١) أى كلا وحاشا